

المبحث الرابع : رحمة الله ببني إسرائيل

نتحدث في هذا المبحث عن رحمة الله ونعمه الجليلة ببني إسرائيل، عبر آيات بينات من القرآن الكريم موجهة إليهم، تبدأ بتذكيرهم بنعمة الله ورحمته عليهم، هذه النعم والرحمات التي يذكرهم بها، تتمثل في أن الله قد نجاهم من فرعون ونجاهم من الغرق وأغرق فرعون وقومه، فتح الله لهم بابا للتوبة، بعد أن عبدوا العجل، وأطاعوا السامري وعصوا موسى نبيا، وأخاه هارون الذي كان معهم الذي حذرهم من عبادة العجل الذي فتنوا به، وبأن تجاوز عن خطيئتهم عندما راجعوا طاعة ربهم في التوراة، بعد أن رفع فوقهم الطور، هذه التوراة التي جاءتهم لتنجيهم من الضلالة وعمى الحيرة.

ثم ذكرهم بعد ذلك أن من تاب منهم بعد الإساءة والظلم، أنه يقبل توبته، ثم بين لهم أن الرحمة لمن يخاف الله ويخشى عقابه، وقد أدركت إخوة يوسف من قبل.

ثم يعد الله بني إسرائيل مرة أخرى بالرحمة بعد النعمة، إن هم دخلوا الإسلام، ثم ذكرهم بأن التوراة كانت رحمة لمن آمن من بني إسرائيل، فالتوراة كانت قبل أن يحرفها يهود إماما ورحمة، بها يهتدون، وبها يأتمون، فلا يضلون عن الحق، يقول سيد قطب: (وجعل التوراة كالقرآن (ذكرا للمتقين) تذكروهم بالله، وتبقى لهم ذكرا في الناس، وماذا كان بنو إسرائيل قبل التوراة؟ كانوا أذلاء تحت سياط فرعون، يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم، ويستذلهم بالسخرية والإيذاء⁽¹⁾، زيادة على ذلك فيها بشارة بخاتم النبيين وسيد المرسلين محمد ﷺ، الذي عمحيته يهتدون إلى الحق والصواب، ويعودون إلى ربهم بدخولهم الإسلام.

ومن رحمة الله ببني إسرائيل — كذلك — أن أبرز لهم حادثة ميلاد عيسى بن مريم عليه السلام، ليقودهم إلى معرفة الله وعبادته، وهذه رحمة عظيمة بهم، فهل قدروا الله حق قدره؟ وهل سيقدرّون هذه النعمة والرحمة اليوم أو غدا؟ لا زال الباب مفتوحا لهم ليعودوا إلى حظيرة الإسلام، وإلى كنف الرحمان، ما لم تطلع الشمس من مغربها، فهذه نعم يذكرهم بها أرحم الراحمين، فمتى تلين هذه القلوب المتحجرة؟ وإلى متى هم غارقون في

1 - في ظلال القرآن، سيد قطب، 4 / 2384.

غضب الله وسخطه؟ وإلى متى يعيشون في الأرض الفساد، وهم ينسجون خيوط المكر للمسلمين، ويوقدون نار الفتن والحروب في العالم؟ ألم يأن لهم أن تلين قلوبهم إلى ذكر الله، وقد قست هذه القلوب بسبب نقضهم الميثاق، فطردوا من رحمة الله، أما أن لهم أن يدخلوا في دين الإسلام؟ أم ينتظرون قذائف الحق تفرع قلوبهم من وراء الحصون المحصنة، التي لم تلت بطيور السلوى ولا بالمعجزات ولا بالقرآن، ولا بهدي نبي الرحمة محمد ﷺ، هذا ما ستوضحه لنا الآيات البينات.

1- تذكير بني إسرائيل برحمة الله عليهم بأن نجاهم من فرعون ونجاهم من الغرق:

— من رحمة الله ببني إسرائيل أن نجاهم من فرعون، ونجاهم من الغرق ثم أغرق فرعون وقومه، قال البغوي: لما قال أصحاب موسى: سيدركنا قوم فرعون ولا طاقة لنا بهم، قال موسى: ثقة بوعده الله إياه: كلا لن يدركونا، إن معي ربي سيدلني على طريق النجاة، فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فانشق، فكان كل قطعة من الماء، كالجبل الضخم، وقربنا ثم قوم فرعون، يقول: قدمناهم إلى البحر وقربناهم إلى الهلاك⁽¹⁾:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنَا ثُمَّ الْآخِرِينَ﴾⁽²⁾.

قال في روح المعاني: ثم أنجينا موسى ومن معه — أنجيناهم من الهلاك في أيدي أعدائهم — ومن الغرق في البحر بحفظه على تلك الهيئة، إلى أن خرجوا إلى البر، وقيل ومن معه للإشارة إلى أن إنجاءهم كان ببركة مصاحبة موسى عليه السلام ومتابعته، وقيل لينتظم من آمن به عليه السلام من القبط إذ لو قيل وقومه، لتبادر منه بنو إسرائيل⁽³⁾، قال تعالى: ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ (66) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾⁽⁴⁾، قال في فتح القدير: ثم أغرقنا فرعون وقومه، أغرقهم الله بإطباق البحر عليهم، بعد أن دخلوا فيه متبعين موسى

1 - انظر معالم التنزيل، البغوي، 3 / 388

2 - الشعراء (61 - 64)

3 - روح المعاني، الألوسي، 89 / 19.

4 - الشعراء (65 - 68)

وقومه⁽¹⁾، قال في روح المعاني: وما كان أكثر الناس الموجودين بعد تحقق هذه الآية العظيمة، وظهورها مصدقين تصديقا يقينيا جازما لا يقبل الزوال، فإن الباقين في مصر من القبط لم يؤمن أحد منهم مطلقا، وأكثر بني اسرائيل كانوا غير متيقنين، ولذا سألوا بقرة يعبدونها، وعبدوا العجل، فلا يقال لهم مؤمنون بالمعنى المذكور⁽²⁾، (وإن ربك هو العزيز الرحيم)⁽³⁾ قال البغوي: العزيز في الانتقام من أعدائه، (الرحيم) بالمؤمنين حين أنجاهم⁽⁴⁾، من قوم فرعون ومن الغرق.

2 — ندم بنو اسرائيل بعد عبادة العجل وفتح باب التوبة رحمة بهم:

أ — بنو اسرائيل يدعون الله أن يرحمهم ويغفر لهم ظلمهم بعد أن عبدوا العجل: اتخذ بنو اسرائيل العجل لها وكانوا باتخاذهم إياه ربا معبودا ظالمين لأنفسهم، قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خَوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (148) وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾⁽⁵⁾ قال الطبري: ولما ندم الذين عبدوا العجل الذي وصف جل ثناؤه صفته عند رجوع موسى إليهم، واستسلموا لموسى وحكمه فيهم، ورأوا أنهم قد جاروا عن قصد السبيل، وذهبوا عن دين الله وكفروا برحمته، قالوا تائبين إلى الله منييين إليه من كفرهم به: لئن لم يتعطف علينا ربنا بالتوبة برحمته، ويتغمد بها ذنوبنا، لنكونن من الهالكين الذين حبطت أعمالهم⁽⁶⁾.

وقال أبو السعود: قال الذين عبدوا العجل: والله لئن لم يرحمنا ربنا⁽⁷⁾، بإنزال التوبة المكفرة، ويغفر لنا ذنوبنا، بالتجاوز عن خطيئتنا⁽⁸⁾، لنكونن من الخاسرين، أي المغبونين بالعقوبة.

1 - فتح القدير، الشوكاني، 4 / 102.

2 - روح المعاني، الألوسي، 19 / 90.

3 - الشعراء (68)

4 - معالم التنزيل، البغوي، 3 / 388

5 - الأعراف (148 - 149).

6 - انظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، 9 / 62 - 63

7 - قال أبو السعود: وتقديم الرحمة على المغفرة، مع أن المغفرة حقها أن تقدم على الرحمة، إما للمسارعة إلى ما هو المقصود الأصلي، وإما لأن المراد بالرحمة مطلق إرادة الخير بهم، وهو مبدأ لإنزال التوبة المكفرة لذنوبهم، (إرشاد العقل السليم، 3 / 273).

8 - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود، 3 / 273.

ب — بنو إسرائيل تدركهم رحمة الله بالتوبة المشروطة بعد التطهير:

عن الزهري⁽¹⁾ قال: لما أمرت بنو إسرائي بقتل أنفسها، برزوا ومعهم موسى فاضطربوا بالسيوف، وتطاعنوا بالخناجر، وموسى رافع يديه حتى إذا أفنوا بعضهم قالوا: يا نبي الله أَدع لنا، وأخذوا بعضديه فلم يزل أمرهم على ذلك، حتى إذا قبل الله توبتهم قبض أيديهم بعضهم عن بعض، فألقوا السلاح وحزن موسى وبنو إسرائيل للذي كان من القتل فيهم، فأوحى الله إلى موسى: ما يحزنك؟ أمّا من قتل منكم فحي عندي يرزق، وأمّا من بقي فقد قبلت توبته، فسر بذلك موسى وبنو إسرائيل.

عن مجاهد⁽²⁾ قال: كان أمر موسى قومه عن أمر ربه، أن يقتل بعضهم بعض بالخناجر، ففعلوا فتأب الله عليهم⁽³⁾، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾⁽⁴⁾

ويعني بقوله: (فتاب عليكم) رجع لكم ربكم إلى ما أحببتكم من العفو عن ذنوبكم، وعظيم ما ركبتكم، والصفح عن جرمكم، (إنه هو التواب الرحيم) يعني الراجع لمن أناب إليه بطاعته، إلى ما يحب من العفو عنه، ويعني بالرحيم العائد إليه برحمته المنجية من عقوبته⁽⁵⁾.

1 - الزهري: هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري المدني، 50هـ - 124هـ، انظر تذكرة الحفاظ، للشيخ محمد بن طاهر القيسراني، تحقيق: حمدي عبد المجيد اسماعيل السلفي، 1/108، دار الأسمعي - الرياض، ط6، 1404هـ/1984م.

2 - مجاهد: هو أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكي، المقرئ المفسر الإمام أحد الأعلام من التابعين، والأئمة المفسرين، قرأ على عبد الله بن السائب وابن عباس وروى عن أم سلمة، وأبي هريرة وأم هانئ وجابر بن عبد الله وعبد الله بن عمر، قرأ عليه ابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو بن العلاء، وروى عنه تفسيره شيل بن عباد المكي، توفي سنة ثلاث ومائة، انظر: غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري، شمس الدين محمد بن محمد الجزري المتوفى سنة 833هـ، عني بنشره ج، جسترأسر، 278/2، مطبعة السعادة - القاهرة، ط1، 1351هـ/1932م، وسير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: الشيخ شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، 4/449، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط9، 1413هـ/1993م، والأعلام، لخير الدين الزركلي، 5/278، دار العلم للملايين - بيروت، ط6، 1404هـ/1984م، وتذكرة الحفاظ 1/92، وطبقات المفسرين، للداودي 380/1.

3 - الدر المنثور في تفسير المنثور، للإمام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، 1/179، دار الفكر - بيروت، ط1، 1403هـ/1983م.

4 - البقرة (54)

5 - جامع البيان عن تأويل أي القرآن، الطبري، 1/288.

ج — من فضل الله ورحمته على بني إسرائيل أن تاب عليهم وأخر عنهم العذاب: قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾⁽¹⁾، قال الطبري: فلولا أن الله تفضل عليكم بالتوبة، بعد نكثكم الميثاق الذي واثقتموه، إذ رفع فوقكم الطور بأنكم تحتهدون في طاعته، وأداء فرائضه، والقيام بما أمركم به، والانتفاء عما نهاكم عنه، في الكتاب الذي آتاكم، فأنعم عليكم بالإسلام، (ورحمته) التي رحمكم بها، وتجاوز عنكم خطيئتك، التي ركبتموها بمراجعتكم طاعة ربكم، لكنتم من الخاسرين⁽²⁾.

وقال الرازي: ذكر القفال في تفسيره وجهين، الأول: لولا ما تفضل الله به عليكم من إمهالكم وتأخير العذاب عنكم لكنتم من الخاسرين، أي من الهالكين الذين باعوا أنفسهم بنار جهنم، فدل هذا القول على أنهم إنما خرجوا عن هذا الخسران، لأن الله تعالى تفضل عليهم بالإمهال حتى تابوا، الثاني: أن يكون الخبر قد انتهى عند قوله تعالى: (ثم توليتم من بعد ذلك)، ثم قيل: (فلولا فضل الله عليكم ورحمته) رجوعاً بالكلام إلى أوله أي: لولا لطف الله بكم برفع الجبل فوقكم، لدُمت على ردكم الكتاب، ولكنه تفضل عليكم ورحمكم فلطف بكم بذلك حتى تبتم⁽³⁾.

د — من رحمة الله تعالى أنه يقبل توبة من أساء من بني إسرائيل ورجع عن ظلمه: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾⁽⁴⁾ وهذا خبر من الله تعالى أنه قابل من كل تائب إليه من ذنب أتاه صغيرة كانت معصيته أو كبيرة، كفرا كانت أو غير كفر، كما قبل من عبدة العجل توبتهم بعد كفرهم به بعبادتهم العجل وارتدادهم عن دينهم⁽⁵⁾.

والذين عملوا السيئات من الكفر والمعاصي كلها، ثم تابوا ثم رجعوا من بعدها إلى الله واعتذروا إليه، وآمنوا وأخلصوا الإيمان، إن ربك من بعدها من بعد تلك العظائم لغفور لستور عليهم، محاء لما كان منهم، رحيم منعم عليهم بالجنة، وهذا حكم عام يدخل تحته

1 - البقرة (64).

2 - جامع البيان عن تأويل أي القرآن، الطبري، 1 / 328.

3 - التفسير الكبير، الرازي، 3 / 101.

4 - الأعراف (153).

5 - جامع البيان عن تأويل أي القرآن، الطبري، 9 / 81.

متخذوا العجل ومن عداهم، عظمت جنايتهم أو لا، ثم أردفها تعظيم رحمته، ليعلم أن الذنوب وإن جلت وعظمت، فإن عفوه وكرمه أعظم وأجل، ولكن لا بد من حفظ الشريطة، وهي وجوب التوبة، والإنابة وما وراءه طمع فارغ وأشعبية باردة، لا يلتفت إليها حازم⁽¹⁾.

فإذا ما تابوا وآمنوا بالله فإنه (لساير عليهم أعمالهم السيئة، وغير فاضحهم بها، رحيم بهم وبكل من كان مثلهم من التائبين)⁽²⁾.

3 — التوراة كانت هدى ورحمة لبني إسرائيل تنجيهم من الضلال:

أ — من رحمة الله ونعمه على بني إسرائيل أن بين لهم سبل الرشاد بالتوراة: قال تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾⁽³⁾

قال الطبري: ثم آتينا موسى التوراة تماما لنعمنا عنده، وأيادينا قبله، لتتم به كرامتنا عليه، وعلى إحسانه وطاعته ربه، وقيامه بما كلفه من شرائع دينه، وتبييننا لكل ما لقومه وأتباعه إليه الحاجة من أمر دينهم، عن قتادة: (وتفصيلا لكل شيء) فيه حلاله وحرامه، وهدى يعني بقوله وهدى تقويما لهم على الطريق المستقيم وبياننا لهم سبل الرشاد لئلا يضلوا، ورحمة منا بهم ورأفة لنجيهم من الضلالة وعمى الحيرة⁽⁴⁾، وقال الرازي: والهدى معروف وهو الدلالة، والرحمة هي النعمة⁽⁵⁾، ثم قال الطبري: (لعلهم بقاء ربهم يؤمنون) فإنه يعني إيتائي موسى الكتاب تماما لكرامة الله موسى على إحسان موسى وتفصيلا لشرائع دينه وهدى لمن اتبعه ورحمة لمن كان منهم ضالا لينجيه الله به من الضلالة وليؤمن بقاء ربه إذا سمع مواعظ الله التي وعظ بها خلقه فيه، فيرتد عما هو عليه مقيم من الكفر به وبلقائه بعد مماته فيطيع ربه ويصدق بما جاءه به نبيه موسى عليه السلام⁽⁶⁾.

ب — بالتوراة — في زمن موسى عليه السلام — ينال بنو إسرائيل الرحمة إذا عملوا بها:

-
- 1 - تفسير الكشاف، الزمخشري، 2 / 153-154.
 - 2 - انظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، 9 / 81.
 - 3 - الأنعام (154).
 - 4 - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، 8 / 92.
 - 5 - التفسير الكبير، الرازي، 5/14.
 - 6 - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، 8 / 92.

كان هناك بابا مفتوحا لبني اسرائيل لأن ينالوا رحمة الله تعالى، إذا تمسكوا بالتوراة وعملوا بها، ولم يحرفوها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾⁽¹⁾

قال في الكشف: يريد آتيناه التوراة أنوارا للقلوب، لأنها كانت عمياء لا تستبصر، ولا تعرف حقا من باطل، وإرشادا لأنهم كانوا يتخبطون في ضلال، ورحمة لأنهم لو عملوا بها وصلوا إلى نيل الرحمة، لعلمهم يتذكرون إرادة أن يتذكروا⁽²⁾، وبما فيه من المواعظ والبصائر⁽³⁾.

ج — التوراة كانت إماما ورحمة في عهد موسى وقبل التحريف لبني اسرائيل: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّنَذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾⁽⁴⁾

ومن قبل هذا الكتاب — أي القرآن — كتاب موسى وهو التوراة، إماما لبني اسرائيل يأتمون به ورحمة لهم أنزلناه عليهم⁽⁵⁾، فكتاب موسى إماما ورحمة، (حالان من كتاب موسى، أي إماما يقتدى به في دين الله تعالى وشرائعه، كما يقتدى بالإمام، ورحمة من الله تعالى لمن آمن به وعمل بموجبه⁽⁶⁾).

وقد كرر القرآن الإشارة إلى الصلة بين القرآن والكتب قبله، وبخاصة كتاب موسى، باعتبار أن كتاب عيسى تكملة وامتداد له، وأصل التشريع والعقيدة في التوراة، ومن ثم سمي كتاب موسى إماما، ووصفه بأنه رحمة، وكل رسالة السماء رحمة للأرض ومن في الأرض، بكل معاني الرحمة في الدنيا وفي الآخرة، وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا، مصدق للأصل الأول، الذي تقوم عليه الديانات كلها؛ وللمنهج الإلهي الذي تسلكه الديانات جميعها؛ ولالاتجاه الأصيل الذي توجه البشرية إليه، لتتصل برها الواحد الكريم⁽⁷⁾.

1 - القصص (43).

2 - تفسير الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، 3 / 421، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط1، 1401 هـ / 1981 م.

3 - معالم التنزيل، البغوي، 3 / 447.

4 - الأحقاف (12).

5 - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، 26 / 13.

6 - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود، 8 / 82.

7 - في ظلال القرآن، سيد قطب، 6 / 3259.

د — التوراة كانت سعادة لبني إسرائيل ترشدهم إلى الخير وإلى الصلاح ورحمة من العذاب، لمن يخاف الله ويخشى عقابه:

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾⁽¹⁾

ولما سكن — عن موسى — غضبه وتراجعت نفسه، وعرف ما هو فيه اشتغل بأهم الأشياء عنده، فأخذ الألواح التي ألقاها وهي ألواح عظيمة المقدار جليلة، وفي نسختها (أي فيما نسخ فيها وكتب)، مشتملة ومتضمنة هدى ورحمة، أي فيها الهدى من الضلالة، وبيان الحق من الباطل، وأعمال الخير وأعمال الشر، والهدى لأحسن الأعمال والأخلاق والآداب، ورحمة وسعادة لمن عمل بها، وعلم أحكامها ومعانيها، ولكن ليس كل أحد يقبل هدى الله ورحمته، وإنما يقبل ذلك وينقاد ذلك له ويتلقاه بالقبول، للذين هم لربهم يرهبون، أي يخافون منه ويخشونه، وأما من لم يخف الله، ولا المقام بين يديه، فإنه لا يزداد بها إلا عتوا ونفورا، وتقوم عليه حجة الله فيها⁽²⁾.

وهي كذلك رحمة للخلق، بإرشادهم إلى ما فيه الخير والصلاح، للذين هم لربهم يرهبون أي يرهبون المعاصي لأجل ربهم لا للرياء والسمعة⁽³⁾.

وقال الرازي: وهي هدى ورحمة أي هدى من الضلالة ورحمة من العذاب للذين هم لربهم يرهبون يريد الخائفين من ربهم⁽⁴⁾.

4 — رحمة الله تعالى بإخوة يوسف عليه السلام:

أ — الرحمة لأخوة يوسف لما اعترفوا بذنبهم:

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾⁽⁵⁾

قال يوسف لإخوته: لا تثريب يقول لا تغيير عليكم، ولا إفساد لما بيني وبينكم من الحرمة وحق الأخوة، ولكن لكم عندي الصفح والعفو، ويقول: لا أذكر لكم ذنبكم،

1 - الأعراف (154)

2 - تفسير السعدي، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، 1/ 304، مؤسسة الرسالة - بيروت، تحقيق: ابن عثيمين، 1421هـ / 2000م.

3 - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد العمادي، أبو السعود، 3 / 276.

4 - التفسير الكبير، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، 15 / 14، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1421هـ / 2001م.

5 - يوسف (92).

(يغفر لكم الله لكم وهو أرحم الراحمين) وهذا دعاء من يوسف لإخوته، بأن يغفر الله لهم ذنبهم، فيما أتوا إليه وركبوا منه من الظلم، يقول: عفا الله لكم عن ذنبكم وظلمكم، فستره عليكم (وهو أرحم الراحمين) والله أرحم الراحمين، لمن تاب من ذنبه وأناب إلى طاعته بالتوبة من معصيته⁽¹⁾.

ب — الله يرحم إخوة يوسف لإستغفار أبيهم، مع سعيهم بالأسباب الموصلة لها: قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (97) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾⁽²⁾.

قال ولد يعقوب — الذين كانوا فرقوا بينه وبين يوسف — : يا أبانا سل لنا ربك يعف عنا، ويستر علينا ذنوبنا التي أذنبناها فيك وفي يوسف، فلا يعاقبنا بها في يوم القيامة، (إننا كنا خاطئين) فيما فعلنا به فقد اعترفنا بذنوبنا⁽³⁾! (قال: سوف أستغفر لكم ربي) قال يعقوب: ورجائي به أن يغفر لكم ويرحمكم ويتغمدكم برحمته، وقد قيل: إنه آخر الاستغفار لهم إلى وقت السحر الفاضل، ليكون أتم للاستغفار وأقرب للإجابة⁽⁴⁾.

إنه هو الغفور الرحيم، هذا وعد من الله بالغفران والرحمة لمن تاب وآمن، وإشعار بحلم الله تعالى عنهم، مع عظم جرائمهم، وكأن يعقوب عليه السلام، يعلمهم أنه لا يكفي استغفاره لهم، فيجب أن يتعرضوا لرحمته بالطاعة، ولا يأسوا من غفرانه بالمعصية، فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته، ومغفرته سعوا بالأسباب الموصلة لهم إلى رحمته، وأقلعوا عن الذنوب، وتابوا منها لينالوا مغفرته.

5 — الله يعد بني إسرائيل بالرحمة بعد النعمة إن هم دخلوا في الإسلام:

قال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾⁽⁵⁾، عسى ربكم يا بني إسرائيل أن يرحمكم بعد انتقامه منكم، فيرد الدولة إليكم، وإن عدتم وعدنا، أي إن عدتم إلى المعصية عدنا إلى العقوبة، قال قتادة: فعادوا

1 - انظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، 9 / 71.

2 - يوسف (97 - 98).

3 - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، 9 / 71.

4 - تيسير الكريم الرحمن، السعدي، 405/1.

5 - الإسراء (8).

فبعث الله عليهم محمدا ﷺ ، فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون، وجعلنا جهنم للكافرين سجنا ومحبسا من الحصر وهو الحبس⁽¹⁾.

6 — من رحمة الله ببني إسرائيل أن أبرز لهم حادث ميلاد عيسى بن مريم ﷺ يقودهم إلى معرفة الله وعبادته: قال تعالى: ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلْنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾⁽²⁾، يقول سيد قطب: فهذا الأمر الخارق الذي لا تتصور مريم وقوعه، هين على الله، فأمام القدرة التي تقول للشيء كن فيكون، كل شيء هين، سواء جرت به السنة المعهودة أو جرت بغيره، والروح يخبرها بأن رجا يخبرها بأن هذا هين عليه، وأنه أراد أن يجعل هذا الحادث العجيب آية للناس، وعلامة على وجوده وقدرته وحرية إرادته، ورحمة لبني إسرائيل أولا ولل بشرية جميعا، بإبراز هذا الحادث الذي يقودهم إلى معرفة الله وعبادته وابتغاء رضاه⁽³⁾.

7 — من رحمة الله بأتباع عيسى أن جعل في قلوبهم الشفقة واللين:

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾⁽⁴⁾.

أي ثم أتبعنا بعدهم برسلنا الكرام، أرسلناهم رسولا بعد رسول، موسى، وإلياس وداود وسليمان ويونس وغيرهم، وأنزلنا عليه الإنجيل الذي فيه بشارة بمحمد ﷺ، وجعلنا في قلوب أتباعه الحوارين الشفقة واللين، قال في التسهيل: هذا ثناء من الله عليهم بمحبة بعضهم في بعض، كما وصف تعالى أصحاب سيدنا محمد ﷺ بأنهم رحماء بينهم⁽⁵⁾.

يقول سيد قطب: ويذكر هنا صفة بارزة من صفات الذين اتبعوا عيسى بن مريم: وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة، وهم الثمرة الطبيعية لدعوة المسيح - عليه السلام - وروحها السمحة وتطهرها الروحي، وشفافيتها الوضيئة، والرأفة والرحمة ظاهرة واضحة في المؤمنين حقيقة برسالة عيسى عليه السلام، ممن أحسنوا اتباعه، وقد أشارت

1 - معالم التنزيل، البغوي، 3 / 107.

2 - مريم (21).

3 - في ظلال القرآن، سيد قطب، 4 / 2306.

4 - الحديد (27).

5 - التسهيل لعلوم التنزيل، الكلبي، محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي، 4 / 100، دار الكتاب العربي - بيروت، ط4، 1403 هـ / 1983 م.

إليها آيات أخرى في القرآن الكريم، كما حفظ منها التاريخ صوراً يرويها الرواة عن النجاشي، وعن وفد نجران، وعن أفراد ممن وفدوا على دار الإسلام بعد ظهوره، راغبين في الإسلام، بحكم ما استقر في قلوبهم من الحق، مذ كانوا أتباع عيسى بن مريم بحق⁽¹⁾.